



التجوال بين المرض والسياسة مع تشرشل... الرجل البدين لبريطانيا الهرمة

د- عيسى بن ضيف الله حداد

اختصاصي في أمراض الدم والمناعة
اختصاصي في علوم التاريخ

ذلك يا معشر
"الأمريكا"
لا نسدي بما
أجاب روزفلت،
بيد أنني أتوقع

أنه قد "ابتلع ريقه"، ناظراً إلى البعيد... متأكداً من
كون اللحظة التي يمكن "للأمريكا" ابتلاع إمبراطورية
بريطانيا العظمى وضمها لحظيرتها.. قد باتت قاب
قوسين أو أدنى..

على قارعة هذه الرواية نعلن عن زعمنا: يكون
تشرشل بشخصه وهو اجسه، بعقله القلق، وبجسده
المترهل، ومرضه أو علله، قد عبر عن بريطانيا القرن
العشرين خير تعبير، وذلك في صراعها المير لتبقي على
إمبراطوريتها التي لا تغرب عنها الشمس..

ونرى، إن وإن استطاع تشرشل أن ينقذ بريطانيا من
هزيمة منكرة، إلا أنها قد استسلمت لقدرها، فأفلت
شمس إمبراطوريتها وقدمتها على صحن من ذهب إلى
وريشتها وربيبتها، ابنتها العاق "الأمريكا" .. تماماً، كما
فعل تشرشل عندما خرج عارياً، أمام روزفلت..

أجل ما قد جعل تشرشل خليقاً بالشهرة، هو قيادته لبريطانيا
عبر الحرب العالمية الثانية، وإنقاذها من هزيمة مرة..

بعد هذا التقديم المقتضب، لنذهب إلى العالم الشخصي
لتشرشل، لعلنا نتلمس من خلاله، ما له من صلة بين
المرض والسياسة.. بين "البريطانيا" الزاحفة على
بطنها، ونستون تشرشل المتدحرج في عريه، أمام روزفلت
المتغطرس ..

على أية حال، بعد أن انتزعت أمريكا من بريطانيا معظم
مناطق نفوذها، تذكرت صديقها القديم، ونستون تشرشل،
فوهبته صفة مواطن شرف (أمريكية)، عام 1963، أي قبل

من روزفلت إلى تشرشل: إن كانت مسيرتنا الخاصة
بالتجوال بين المرض والسياسة تنقلنا من روزفلت إلى
تشرشل، فإن المسألة لها ما يبررها.. ليس الأمر عائداً فقط
للعلاقة المميزة بين الولايات المتحدة والمملكة البريطانية
العظمى، وإن كان لهذا الشأن له دوره الفعلي، إلا أن تلك
العلاقة تتجلى بما هو أعقد، من حيث كونها قد اختزلت
على نحو مثير مجمل الجوانب المتفاعلة، بجذليتها
ومفارقاتها، ولاسيما بما ظهر منها عبر اللحظات الحرجة
التي مرت بها بريطانيا العظمى إبان الحرب العالمية الثانية،
ولعل أجلى صورة عبرت بها هذه اللحظات عن ذاتها، ما
قد عكسته تلك الرواية التي أكدتها المصادرة التاريخية،
بما هو غير قابل للشك، ومفادها وهي: في إحدى تلك
اللقاءات المبكرة والهامة التي جمعت بين الرجلين في
إحدى الفنادق، حضر روزفلت صاحباً نفسه على مقعده
المتحرك.. حين دخل روزفلت إلى جناح تشرشل، كان هذا
الأخير يستحم.. ما كان من تشرشل إلى أن خرج عارياً
(كما خلقه ربه).. ليقول له، هكذا نحن- البريطانيا..
هل يليق لكم، نحن أمكم، أن نهان هكذا.. هل تقبلون



لذا جعل من ممارسته العسكرية الحقل المجدي لري عطشه الدفين للتألق كنجم..

رؤية أولية في أحواله النفسية: على الرغم من ما لاقاه تشرشل من صعوبات في طفولته وصباه من فقدان الحنان الأسري، إلا أنه حمل في ذاته على الدوام روح الاعتزاز والأثرة بمنبته الطبقي، وقد ترجمه عملياً ورمزياً، بكونه قد بقي طوال حياته متعلقاً بالقصر الذي رأى النور فيه، حيث ما فتئ يعود بانتظام، وحتى أنه قد اختار القصر ليحظى فيه بنعيم شهر العسل.. ولذات التعلق طاب له أن يستقر في راحته الأبدية في مدفن العائلة القائم على تخوم القصر.. وقد بلغ به تعلقه بمنبته وقصره ليعلن في مذكراته.. "أنه لا شيء يعلوا على حدثين في حياته، حظه في موقع ولادته وزواجه" (تزوج في 1908).

لقد ترجم تشرشل هذا الجانب من خصائصه النفسية عبر سلوكه اليومي، فهو لم يكون وشائج وصلات عملية مع الطبقة الشعبية في المجتمع البريطاني.. وكان على الدوام مخلصاً لهواجس ومصالح طبقته، سلوكاً ورؤياً وسياسات..

أما الجانب الآخر في تكوينه النفسي، فيعود بطبيعته إلى عوامل فقدان الحنان

الأسري والفضل الدراسي.. غير أنني أرى، ما كان بوسع هذه التجربة الذاتية المجهضة، أن تخلق فيه محرضات التفوق العملي، لتجعل منه تشرشل المعروف في التاريخ، لولا ذلك الرصيد الضخم من اعتزازه بذاته، العابر إليه من منبته الطبقي، الذي كَوّن الأرضية التي جعلت من تجربته المخففة، تأتي كعامل محرض، لتوظيف طاقته الذاتية، بما ملكت من زخم القدرة والفعالية، ليشق عبرها طريقه نحو امتطاء العلا..

وهكذا تكون تلك العوامل المتعددة والمعقدة والمتداخلة جدلياً في عوالمه النفسية، قد كونت منه، كائناً بشرياً على درجة عليا من الأثرة والأنانية، إلى درجة التمرکز على الذات، الأمر الذي بدا للعيان في فظاظه سلوكه اليومي تجاه المقربين منه.. غير أن سمة "الأثرة والتمرکز على الذات" بحد ذاتها، دفعته للسير قدماً في تحقيق طموحاته، والتسلق الوطيد في سلم الشهرة..

وتشرشل في هواجسه النفسية هذه، كان يرى في ذاته رجلاً متميزاً إلى درجة قوله "لسنا - نحن البشر - إلا ديدان زاحفة على الأرض، غير أنني بحد ذاتي دودة

عامين من وفاته.. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي تم فيها هبة مثل هذا الشرف، أجل لم يكن لذلك من مثيل من قبل ومن بعد..

السيرة الشخصية للرجل

منبته - أقل ما يقال في هذا الصدد، أن تشرشل يعود إلى أصول ارسقراطيه عريقة، مما عزز في ذاته، روح الاستعلاء، من حيث كونه ينتمي إلى ما يطلق عليه جوازاً، الطائفة النخبوية - الملهمة، من البشر الفائقة القدرة.. هؤلاء الذين يرون في ذواتهم أنهم ورثوا الشرف والموهبة والتفوق أباً عن جد، وأن لديهم ولهم ما يعوزه بقية البشر من علو وقدر.. ولعل ذلك يشكل المفتاح الأول في فهمه لشخصيته وتكوينه النفسي..

ولد تشرشل في 1874/11/30 في قصر بلانهايم Blenheim Palace، وكان الابن البكر لأبيه اللورد راندولف شرشل Randolph Cherchil ولأمه جيني جيروم Jennie Jerome.. ينحدر والده بدوره من سلالة الدوق ماريبورق Mariborough العدو للدود لجيش لويس الرابع عشر، بالمقابل تنحدر والدته من أب نيوركي (من نيورك)، رجل أعمال، واسع الثراء، لا صلة من قريب أو بعيد بطبقة النبلاء..

لم يلق الطفل ونستون أدنى رعاية من أبيه المتغطرس المنصرف بكليته إلى عالم السياسة، ولا من أمه المنشغلة بذاتها.. غير أنه التقط الحنان الذي أفقده من مربيته التي احتفظ بذكراها طوال حياته، إلى درجة انه قد وضع صورتها في مكتبه حتى نهاية أيامه..

تحصيله العلمي - قيص له أن يبدأ تعليمه في هارو Harrow في مدرسة راقية، فائقة التكاليف.. غير أن نتائج الدراسة كانت من السوء بمكان، الأمر الذي أخفاه في مذكراته.. وبسبب من تعثره في دراسته، توجه إلى القطاع العسكري.. غير انه قد رفض من قبل الأكاديمية العسكرية في Sandhurst ثلاث مرات متتالية.. ولا شك، أن عائلته قد لعبت دوراً في تخطيه لتلك العقبة، مما أدى إلى قبوله في الأكاديمية العسكرية.. تخرج أخيراً كضابط في عداد القوات المسلحة لجلالة الملكة (عام 1895). وهكذا قد مثل له الجيش السبيل الوحيد الذي فتح الأفاق أمامه للتعبير عن هواجسه الدفينة، وتحقيق طموحاته الشخصية، والبروز المقبل في عالم السياسة..

نتساءل عن وجود صلة ما، بين باعه الطويل في حروب بريطانيا العظمى "وشياطينه السوداء" التي كانت تزوره بين الحين والحين، ككوابيس لتضج مضجعه..؟ وهل يمكن لنا البحث عن آلية مرضية نفسية، كتعبير عن يقظة للضمير الخفي القابع في الأعماق، إزاء ما شاهد وأرتكب من أهوال..؟



الشياطين السوداء التي كان يراها تشرشل في كوابيسه

تشرشل في عالم السياسة - من المؤكد، أن منبته الطبقي ولباعه العسكري، قد أسهما في تسهيل ولوجه إلى عالم السياسة..

في بداية القرن الماضي (عام 1900) دخل البرلمان ممثلاً لمنطقة أولدهام، أعيد انتخابه فيها (عام 1904). أصبح وزيراً للتجارة والصناعة في عام 1908، ثم أصبح وزيراً للداخلية في عام 1910 و1911.. توج عمله في وزارة الداخلية باستعمال القوة المضربة لقهر إضراب عمال سكة الحديد البريطانيين.. وكان قد اشتهر بعدائه للطبقة العمالية والشعبية.. وعدواً لدوداً للشيوعية وللثورة البلشفية..

بين عام 1914-1918، أثناء الحرب العالمية الأولى؛ تسلم قيادة القوى البحرية.. وقد صب جل اهتمامه على مضيق الدردنيل، واضعاً نصب عينيه احتلال إستانبول.. غير أنه قد مني بكارثة عسكرية راح ضحيتها 250000 بين قتيل وجريح ومفقود.. في عام 1916 التحق بجبهة الحرب في فرنسا.. في أعقاب الحرب تسلم وزارة الحرب، انصب جهده لتحديث الجيش..

مضيئة فحسب" .. وقد تمادت أثرته و اعتزازه بذاته إلى درجة الاعتقاد بكونه يمتلك ناصية الحقيقة، وأنه على صواب دائم.. وهو في ممارسته السياسية كان يزج نفسه في كل القضايا صغيرها وكبيرها.. إلى درجة أن أنطبق عليه المثل الدارج "في أنه لا يتورع عن غمس يده في كل أنواع الكاتو قبل أن تذهب إلى النار" ..

في سلوكه وموقفه ورؤيته السياسية: إن جملة هذه المكونات الاجتماعية والسيكولوجية قد جعلت منه منتمياً بكل جدارة إلى التيار المحافظ، أين كان.. يجيش في ذاته حنين عميق إلى العصر الفيكتوري الذي جعل من الجزيرة إمبراطورية عظيمة.. ولعله قد بذل قصارى جهده، دون لأي، لصيانة ما تبقى لها من أمجاد.. بيد كان للتاريخ وجهة أخرى، لا يخضع بها لنزوات الرجال، حتى لو كانوا أفاذاً - كما يوسم به عادةً رجلنا، ونستون تشرشل..

تشرشل في معترك الحياة والسياسة:

تشرشل في الجيش - من الهند إلى كوبا إلى الهند مرة أخرى، إلى السودان إلى جنوب إفريقيا.. أسهم في كل العمليات العسكرية التي شنتها بريطانيا العظمى في تلك البلدان وراح ضحيتها الآلاف المؤلفة من البشر.. وكان نصيبنا منها نحن العرب، 10000 قتيل في مذبحه أم درمان وحدها في السودان، ناهيك عن ما جرى في فلسطين ومصر والعراق واليمن.. أما عن مذبح الهند وجنوب أفريقيا، فحدث ولا حرج.. وبلغ من تفاعله مع فعاليات العسكرية، أن قال يوماً "تصور، أنك تستيقظ كل صباح على 20000 من القتلى.."

تشرشل العنصري: من جاب آخر، كان سلوكه في جنوب إفريقيا يتسم بعنصرية مقبولة، إذ لعب دوراً هاماً في معاداة سكانها الأصليين، وتدعيم مواقع العرق الأبيض، وقد عبر عن رأيه مراراً في أحقية سيطرة العرق الأبيض على باقي عروق البشر.. لم تبح له عنصريته والحالة هذه، كي يطلع على الثقافة الهندية والإفريقية، على الرغم من المدة الكافية التي مكثها في تلك البقاع من العالم.. ولعل ذلك - كما أرى، يعود لكونه مسكوناً بعظمة ثقافة العرق الأبيض.. وما حاجته إذن

للتعرف على غيرها..! وعلى هذا النهج اندفع في سياساته الاستعمارية بكل حمية..

وهنا ربما يحق لنا، عندما نلج في عالمه المرضي، أن